التحرّر والإلحاد

سؤال: ما السبب في انتشار الإلحاد كل هذا الانتشار؟

الجـواب: إن انتشـار الإلحاد متعلّقٌ بانهدامِ الحياة القلبيّة وسـقوطِها إلى جانبِ تعلُّقِه بأسـباب متعدّدة، والإلحاد من الناحية الفكرية: إنكار الله وعدم قبوله، وهو على صعيدِ التصوّر: الحريّة المطلقةُ دون حدود، وعلى صعيد العمل والسلوك: تبنّي الإباحيّة والدفاع عنها.

إنّ انتشارَ الإلحادِ الفكريّ ما هو إلا نتيجة إهمالِ الأجيال الشابّة وسوءِ التطبيق في دُور العِلْمِ ومعاهده، علاوةً على أنّ تلقّي الإلحادِ المساعداتِ الكثيرةَ من هنا وهناك كان كفيلًا باكتسابه السرعةَ والقوّة.

إن أكثرَ البيئاتِ قابليّةً لنموّ الإلحاد هي تلك البيئة التي يسودُها الجهل ويغيـب عنهـا القلب، فَكُتَـلُ الجماهيرِ التي لا تتلقّى تربيـةً روحيّةً وتغذيةً قلبيّـةً سـتقـعُ -إن عاجـلًا أم آجلًا- فـي براثن الإلحاد، وإذا لـم تتداركْها العناية الإلهية فإنها لن تسـتطيـع إنقاذَ نفسـها. نعم، إذا لم تبذل الأمة عنايةً خاصّـةً فـي تعليم أفرادِها ضروراتِ الإيمان ولم تُظهِرِ الحساسـيّةَ اللازمة في هذا الأمر، وتركت أفرادها في ظلام الجهل؛ فإنّها بذلك تدفعهم لتقبُّلِ كلِّ إيحاءٍ معروضٍ عليهم.

والإلحاد في بادئ الأمر يتجلى باللَّامُبالاة تجاه أُسُسِ الإيمان وعدمِ الاهتمام بها، ومثل هذا السلوك الذي يبدو وكأنه يتّسم بحرية التفكير ما إن يجد أي أمارة صغيرة تعِين على فكرة الإنكار والإلحاد حتى ينمو الإلحاد ويزداد، مع أن الإلحاد لا يستند إلى أيّ سببٍ علميّ ذي قيمة، ولكن قد يتولّد أحيانًا من إهمالٍ بسيطٍ أو غفلةٍ أو تقييمٍ خاطئ.

وفي أيامنا الراهنة كثيرٌ ممن هلك تحت ضغط هذه الأسباب، غير أننا سنقف هنا فقط على أهمّها وأكثرها تخريبًا وتدميرًا، وأنوّه بدايةً بأننا لسنا في مجال التعرّض هنا إلى الأدلة التي تهدم الإلحاد وتزيله، ومن الطبيعي ألّا يتوقّعَ القارئُ منا في هذا الحيّز الصغيرِ التعرُّضَ إلى موضوع يحتاج مجلداتٍ، وإنّه ليَنُوءُ بزاوية الأسئلة والأجوبة هذه التي ننتجها، فهي عاجزةٌ عن استيعابه ولا تستطيعُ وفاءَه حقَّه، فإن مواضيع معقدة وعميقة بهذا المستوى لا يمكن تناولها وإيضاحها حقّ الإيضاح في مثل هذه الزوايا، ثم إن هناك كتبًا ثمينةً جدًّا وممتازةً للغاية في هذا الموضوع، ولن يتعدّى كلامنا سوى أن يكون تكرارًا لما ورد فيها.

لِنرجع إلى ما نحنُ بصدده؛ إن كل شيء رسالةٌ إلهية وكل حادث انبثق من يد القدرة، رغم هذا كله فإن الأشياء والحوادث، كذلك الطبيعة وقوانينها قد تُستخدم على أيدي طائفةٍ من الناس وسيلةً لاستغفال الأجيال وساحةً لبذرِ بذورِ الإلحاد، مع أنه سبقَ وأن كُتِبَ آلاف المرات في الشرق والغرب وذُكِرَ أن قوانينَ الطبيعة هذه ليست إلّا آليةً تعمل بِدِقّةٍ واتّساقٍ واطّرادٍ، ومعملًا ذا إنتاجٍ وفيرٍ، ولكن من أين أتى هذا الاطّراد وهذه القدرة على الإنتاج؟ ومن أين نتج هذا النظام والاتساق؟ هل يُعقَلُ أن تكون هذه الطبيعة الجميلة -التي تسحر النفوس والأرواح مثل شِعر مُنَظَّمٍ ونغمٍ موسيقيٍّ- نتيجةَ مصادفاتٍ عمياء؟!

إن كانت الطبيعة تملك -كما يُتوهّم- قوّةً قادرةً على الإنشاء والخلق؛ فهل نستطيع إيضاح كيف استطاعت الحصول على مثل هذه القدرة؟ أنستطيع أن نقول: إنها خَلقت نفسَها بنفسِها؟ أيمكن تصديق مثل هذه المغالطة المرعبة؟! فالوجه الحقيقي لهذه المغالطة هو: "الشجرة خَلقت نفسَها، والجبل خلق نفسه، والسماء خلقت نفسَها..."، لا أعتقد أن هناك شخصًا واحدًا عاقلًا يستطيع أن يؤيّد مثل هذه المغالطة والبعد عن المنطق.

أما إن كان القصدُ من ذكرِ "الطبيعة" هو الإشارة إلى القوانين الفطرية فهذا أيضًا خداع لكنّه من نوعٍ آخر؛ ذلك لأن القانون -بتعبير القدماء- عَرَضٌ من الأعراض، والعَرَضُ لا يقوم إلا بالجوهر، أي يتعذر علينا تصوُّرُ قانونٍ متعلقٍ بمركَّب أو جهاز ما دون تصوُّر الهيئة العامة لهما والأجزاء التي تشكلهما؛ وبتعبير آخر: فإن القوانين قائمة بالموجودات، فقانون النمو يظهر في البذرة، وقانون الجاذبية يظهر في الكتل وفي الحيز (المكان)... إلخ، والأمثلةُ على ذلك كثيرة، إذًا فإنّ التفكيرَ في القوانين قبلَ التفكير في الموجودات والزعمَ بأن هذه القوانين هي منشأُ الوجودِ ليس إلا خداعًا وبهْلَوانيةً.

وليس النظر إلى الأسباب واعتبارها أساسًا وقاعدةً للوجود أقلَّ خداعًا وتضليلًا، فالحقيقة أن محاولة القيام بتفسير وإيضاح هذا العالم المملوء بآلاف الحِكم والنظُم الدقيقة بالأسباب أو بالصدف محاولةٌ فارغةٌ تفتقرُ إلى أدنى قيمةٍ علمية، بل هي تناقضٌ وهذَيانٌ مضحكٌ، لأنها كالإعلان عن بُطْلانِ العلم.

بينما أعلنت تجارب "مولر (*Müller*)" قصورَ الأسبابِ والصُّدَفِ وعجزَها، تكلّمت العلومُ وأعطت أحكامها. فقد أعلن مثلًا معهدُ الكيمياء في الاتحاد السوفيتي تحت رئاسة "أوبرين (*Cparin*)" بعد بحث دام اثنتين وعشرين سنة أن قوانين الكيمياء والتفاعلات الكيمياوية بعيدة عن تسليط الضوء على الكون والوجود، هذا ما يقوله العلم والعلماء.

ونظرية "التطوّر والتكامل" التي دُرِست في المدارس سنواتٍ عديدةً وكأنها حقيقةٌ علميّةٌ ثابتةٌ... هذه النظريةُ أصبحت -بعد الاكتشافات العلمية الحديثة وتطوّر علم الجينات- مجرّدَ خيالٍ عِلْمِيٍّ وقصّة من قصص التاريخ ولم يعد لها أيّ قيمةٍ علميّةٍ، ولكن كم يؤلمنا أنَّ مثل هذه المسائل الواهية لا تزال من أسباب الإلحاد لأجيالنا الشابّة التي لا تبرح معلقةً في الفراغ لا تملك -مع الأسف حتى الآن- قاعدةً ثقافيّةً متينةً.

ولِحُسْنِ الحظِّ فَعَلَى الجانبِ الآخرِ بدأت تُعرَض في الأسواق كتبٌ من شأنها أن تزيلَ مثل هذه الاستفهامات التي تجرح مشاعرنا وأفكارنا، وأن تعالجَ أمراضنا القلبية والروحية، فمن الممكن الآن الحصول على مئات من الكتب الشرقيّة والغربيّة بمختلف اللغات والتي أوضحت الوجهَ الحقيقي للطبيعة وللأسباب.

ومع أننا نستغرب الكتب المنحرفة التي كتبها بعض «المستغربين» عندنا، إلّا أن كتبًا عديدة كُتبت في الغرب أمثال "لماذا نؤمن بالله" الذي اشترك في كتابته العديد من علماء الغرب تشكل جوابًا لأمثال هؤلاء المستغربين.

وبعد كلّ هذا الوضوح الموجود في الوسط العلمي حول الموضوع، فإن الإلحاد لا يُعَدّ إلّا انحرافًا نفسيًّا وعنادًا وحكمًا مسبقًا ومزاجًا طفوليًّا،

ولكـن لا يـزال شـبابنا بعدُ -رغم كل هـذا- غيرَ متخلّـصٍ تمامًا من تأثير هذه الأفكار التي أكل عليها الدهرُ وشربَ، إذ يتوهمون أنها تحمل حقائق علمية، وما ذلك إلا لأنهم لم يتلقوا التربية العلمية والروحية الكافية.

لـذا كانت التعبئة العلمية والتربوية لنشـر المعارف الصحيحة ضرورةً فـوق كل الضـرورات الأخـرى، أما عدم إيفاء مثل هذه الوظيفة المقدسـة حقّهـا مـن الاهتمام فسـيؤدي إلـى جروح غائـرة في المجتمـع لا يمكن اندمالهـا، وربمـا هذا هو مناطُ كثيـر من الآلام التي عانـى منها المجتمع مـدة سـنوات طويلة، لأننا كنا محرومين من المرشـدين الممتلئين بعشـق التعليـم والذيـن جمعـوا بيـن العلم والروح وبيـن العقل والقلـب وبرزوا وتعمقوا فيهما حتى إنهم إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله، لذا نأمل من هؤلاء المرشدين الحقيقيين التصدي لحمل هذه المهمّة البشـرية الأساسـية وأن ينقذونا من هذه الآلام التي كابدناها طوال قرنٍ من الزمان، عند ذلك ستصل الأجيال في أفكارها ومشـاعرها وخيالها إلى الاسـتقرار، وتتخلّص من الانجراف فـي تيار الأفـكار الخاطئة، ومن التذبذب -كَرَقّاصِ السـاعة- ذات اليمين وذات الشمال، وتمتلكُ مناعة حقيقيّةً ضد الإلحاد.

والخلاصـةُ: إن الإلحاد الفكري هو نتيجة للجهل وعدم امتلاك قابلية التحليـل والتركيـب، وهو عاقبةُ الجفـافِ الروحيّ والقلبي، لأن الإنسـان حبيبُ ما يعرف وعدوّ ما يجهل، أو على الأقل يتحاشاه.

والآن لنلـق نظـرةً علـى الكتـب الموجـودة فـي الرفـوف وواجهات المكتبـات، ونتفحّـص الأفكار التي تـروّج لها هذه الكتب والشـخصيات التـي تقدّمهـا لنا؛ عند ذلك نـدرك لماذا يحاول الصبيان في الأزقّة التشـبُّهَ بـ"زورو (*Zoro*)" أو الشباب بـ"دون جوان (*Don Juan*)"، ما ذكرته ليس إلّا

مثالًا أو مثالين على ما نُحاولُ إيضاحه، وإذا ما نظرنا إلى عناصر التخريب الاجتماعية والاقتصادية الأخرى فليس في وسعنا إلّا أن نرتجف حتى النخاع من المنظر المتشكّل أمامنا.

لقد جسّدَ إنسانُنا من قبل -وما يزال- المقولةَ المذكورة آنفًا فسارَ خلفَ ما يحبّ وما قُدّمَ له على أنه جيّد، وأصبح عدوًّا أو غريبًا عما لا يعرفه، ووظيفتنا الآن هي التفكيرُ بالشيء الذي يجب علينا تقديمه له من الآن فصاعدًا، وإرشادُه إلى طريق النور، وعدمُ تركه في حالة تسيُّبٍ وفراغ.

العامل الثاني في انتشار الإنكار وانجراف الجيل[١٨] إلى الإلحاد: هو طبيعة الشباب، إن الشباب يميلون إلى الإلحاد أكثر لأن لهم رغبات لا تعرف الشبع، وميولًا إلى حرّيّة لا يستعبِدُها أيُّ قيد، فمثل هذه النفوس تتقبّل وتتحمّل من أجل درهمٍ من اللذة العاجلة أطنانًا من الألمِ مآلًا والمعاناةِ مستقبلًا، وهكذا يُهَيِّؤون لأنفسهم عاقبةً وخيمةً وينخدعون باللذّة الموهومة التي يُزَيّنُها لهم الشيطان ويقعون في فخِّ الإلحاد مثلما تقع الفراشات التي تحوم حول النار في النار.

وكلّما زادَ الجهلُ وافْتَقَرَتِ الروحُ والقلب أكثر تيسَّرَتْ غلبةُ المادّة والشهوات الجسديّة على المشاعر السامية، وكما سلَّمَ "فاوست (*Faust*)"[١٩] بِسَذَاجَةٍ روحَه للشيطان فالشبابُ أيضًا يُسَلِّمُونَ قلوبَهم للشيطان. أجل، عندما تكون الأرواح مَيتَةً والقلوبُ فقيرةً والعقولُ هاذيةً؛ فلا سبيلَ أمامها

(١٨) هذا يصح بالنسبة إلى تركيا قبل ثلاثين أو أربعين سنة حيث نشأت أجيال محرومة من التعليم الديني. (المترجم)

(١٩) فاوست: بطل المسرحية المشهورة المسماة "فاوست" للشاعر الألماني الكبير "جوته"، يمثّل فاوست شابًّا وقع في شباك الشيطان الذي يمثله في المسرحية نفسها "مفستو (*Mefisto*)". (المترجم)

سوى الإلحاد، أما إذا كانت القلوب والأرواحُ غنيّة بالتربيةِ والتهذيب ومسلّحةً بالعقيدةِ والشعور بالمسؤوليّة فإنّ هذا يُعتَبرُ أكبرَ ضمانٍ ليقظةِ الشباب؛ وإلّا فإن مجتمعًا تسلّط فيه الشيطان على النفوس سيبقى يتقلّبُ من هَذَيَانٍ إلى آخر، ويُغَيّرُ على الدوام محرابَه وقِبلَتَهُ، وسيَسيرُ خلفَ كلِّ فلسفة جديدةٍ، بل وسيعدّها منقذةً له فَيَرْتَمِي في أحضانِها ويرضعُ من ألبانها، فعندما يستيقظ صباحًا سيصفق للفوضوية، وفي الظهر يقفُ احترامًا للنظام الماركسي-اللينيني، وفي العصر يُحَيّي "الوجودية"، وفي العِشَاءِ قد يُنْشِدُ نشيدًا "هتلريًّا"، ولكنه لن يلتفت أبدًا إلى جذور روحه، ولا إلى شجرة أمّته أو ثقافتها، ولا إلى ثمارها أو روحها أو مدنيّتها.

يصعب كثيرًا على جيل تشوّهت نظرته كلّ هذا التشوّه التخلّصُ من الأهواء والرغبات، ويصعب -إذا لم يكن مستحيلًا- تقويمُ ذهنِهِ وتفكيرِه. لذا كان من الضروري تقديم مصطلحات الأفكار التي كانت أساس وجودنا وكياننا حتى الآن، وإيصالها -بأسلوب منظَّمٍ ومدروسٍ- إلى جيلِنا لِيَصِلَ إلى مستوى القدرة على التفكير السليم الصائب، لأننا مع هذه الشهوات الفردية نكون كما قال الشاعر محمد عاكف[٢٠]:

لا تُصدِّق! إن قالوا لك: إن المجتمع،

يمكن أن يعيش بمشاعره الميتة...

أروني مجتمعًا... استطاع العيش بمعنويات ميتة!

هناك عامل وسبب آخر للإلحاد، وهو اعتبار كلّ شيء مباحًا، أي "النظرة الإباحية" التي ترى الاستفادةَ من كلّ شيء مهما كان ذلك الشيء،

(٢٠) **محمد عاكف** (١٨٧٣-١٩٣٦م): من أكبر شعراء الأدب التركي المعاصر، وهو ناظم النشيد الوطني التركي. (المترجم)

أي النظرة التي تستند إلى الفائدة والتلذذ من جميع النعم، وإنّ المحاولات اليوم لتُبْذَلُ بُغيَةَ صبّ هذه النظرة في قالبٍ فلسفيٍّ وفكريٍّ منهجيّ، فعندما أقبل هذا الفكر إلينا جاءنا أوّل مرّة في شكل فلسفة "فرويدية (*Freud*)" تحت مصطلح "اللبيدو (*Libido*)" الذي جرح مفهوم الحياء لدينا، ثم طغت عندنا الفلسفة الوجودية لـ"جان بول سارتر (*Jan Poul Sartre*)" و"كامو (*Albert Camus*)" فهدمت حصون الحياء عندنا بِرُمّتِها، وجعلتها أثرًا بعد عين.

هذه الفلسفة التي تجعل الإنسان يشمئزُّ من إنسانيّته، والتي ترمي به إلى برميل القاذورات والزبالة قُدِّمت للأجيال على أنها الفلسفة التي توضح الوجهَ الحقيقي للإنسان، فهرع شبابُ أوروبا في أوّل الأمر، ثم شبابُ البلدان المقلِّدة للغرب نحو هذا التيار الفلسفي وكأنهم نُوِّموا تنويمًا مغناطيسيًّا، وقد تصوّرت الإنسانيّةُ أن هذه الفلسفة الوجوديّة سوف تردّ إلى الفردِ قيمتَه وأهمّيَّتَهُ اللّتَين تضاءَلَتا نتيجةً للفلسفة الشيوعيّة، وأن رجوع القيمة إلى الفرد سيُنمّي شجرةَ الإنسانيّة ويُعِيدُ إليها حيويَّتَها من جديد، ولكن هيهات هيهات! فالإنسانية لم تنتبه إلى أنها خُدعت مرة أخرى.

وهكذا فلأن الإيمان بالله والارتباط بمفاهيم الحلال والحرام لا يتماشى مع فلسفة التهام اللذات لهذا الجيل الذي تشوه بهذه الدرجة، نرى هذا الجيل يرمي بنفسه إلى أحضان الإلحاد، ظانًّا أنه سيعثر فيها على الجنة، إلا أنها جنة مزيّفة مثل جنة "حسَن الصبّاح" زعيم الحشاشين.

لقد عرضنا بعض الملاحظات التي تهمّ من يملك البصيرة من الإداريين والمرشدين والمعلمين في المستقبل لكي يستطيعوا إيقاف تيّار

الإلحاد، ولكننا لا نعتقد بأن التسيب والهذيان الفكري محصوران داخل هذه الأسباب، كما أن التدابير التي يجب اتّخاذها غير محصورة أيضًا فيما ذُكر، وإني لَأَتَمَنَّى أن تستفيق أمتنا في هذا العهد الجديد وتثوب وترجع إلى نفسِها ورُشْدها.

داء الإلحاد ودواؤه

سؤال: ما الذي يجب ذكره أولًا للمُنكِر والمُلحِد، وكيف؟

الجواب: قبل الإجابة على السؤال أرى من المفيد أولًا إيضاح بعض الأمور:

إن أنواع الإلحاد تختلف باختلاف القناعة الشخصية للمرء، وسلوكياته تجاه الإيمان، والتصديق وعدم التصديق بكل ما يجب الإيمان به، ويختلف الشخص اللامبالي بأُسُسِ الإيمان عن الشخص الذي يُنْكِرُ هذه الأسس ولا يؤمن بها أصلًا، وكذلك يختلف كليةً عن الشخص الذي يرفض كلَّ هذه الأركان والأسس ولا يقبلها وينكرها تمامًا، وبعبارة أكثر وضوحًا نستطيع أن نضع الترتيب الآتي:

١- هناك إنكارٌ ناشئ عن لا مبالاة محضة دون تفكير فيما يجب الإيمان به، ومعظم هذا الإنكار نراه عند مَن لم يتعوّد على التفكير المنطقي، وعند الذين استعبدتهم الأهواء والشهوات، وعند الحمقى والبلهاء، ومن الصعب أن تُعلّم هؤلاء أو تحدّثهم بشيءٍ عن الإيمان، بل يستحيل هذا أحيانًا، فسلوك هؤلاء يتَّصف بالانسياقية، يتحرّكون بشكلٍ موازٍ لحركة الجماهير وحسب الضغط الاجتماعي الموجود حولهم، يندفعون مع التيار، ويسايرون الركب البشري حيث اتَّجَهَ وسارَ...

٢- الصنف الثاني هم الذين لا يقبلون أسس الإيمان؛ وهؤلاء أيًّا كانت العوامل التي ساقتهم لهذا الإنكار مُلحدون ومُنكرون.

٣- الصنف الثالث هم الذين لا يتقبّلون ما يستدعي الإيمانُ قبولَه، وقد ازدادت نسبةُ هؤلاء حاليًّا عن نسبتهم الموجودة في سابق العصور.

ونستطيع تقسيم الصنفين الأخيرين إلى:

أ. من يُرجِع كلّ شيء إلى المادّة ولا يؤمن بأي حدثٍ غيبيٍّ.

ب. مَن يؤمن ببعض الظواهر الميتافيزيقية والروحية كَعِلمِ "ما وراء النفس" أي "الخارقيّة" التي تُسمّى: "باراسيكولوجي (*Parapsychology*)".

يُعدّ الإنكار من أبرز صفات بني الإنسان المتجبّر الطاغي، وأحد أسباب الأزمة التي يعيشها شبابُ هذا العصر، والإنكار هو المصدر الأساس للهلاك والمصائب والفوضوية، حتى إننا نستطيع القول إن البشرية عاشت أكثر أحوالها اضطرابًا وتوترًا في فترات الإنكار والبعد عن الإيمان، وكان السادة الأحرار في عصر النهضة ودهماء الثورة الفرنسية أوّل مَن مثلوا هذا الإنكار ونشروه، ثم جاء فيما بعدُ مَن اتخذ هذا الإنكار دينًا، إلى أن انتشرَ هذا الاتجاه انتشارَ النار في الهشيم حتى استولى على أرجاء العالم الحالي.

لقد اتّضَحَ جليًّا في عصرنا الحالي أن الإلحاد ليس إلا فلسفةً بهيميّةً وجنونيّة، وهو موضوعٌ يجب أن يُعْنَى ويهتم به علْم النفس أكثر من اهتمام علم الاجتماع أو علم الاقتصاد؛ ذلك لأننا عندما نقوم بمقارنةِ نماذجِ الجنون وأنواع المجانين في كتب علم النفس مع نماذج ملحدي هذا العصر لا نملك إلا التصديقَ بأن الإلحاد مرضٌ نفسي يجب أن يهتمّ به علم النفس.

ومع أن هذا الموضوع ليس من اختصاصي ولا علاقة مباشرة له مع السؤال؛ إلا أننا عندما قمنا بتصنيفٍ بسيطٍ للإلحاد أردنا أن نُبيّنَ بأنه كما أنّ للإيمان درجات ومراتب، كذلك للإلحاد دركات وأنواع، فليس من الممكن اعتبار كلِّ ما يقالُ للمنكِر علاجًا وشفاءً؛ لذا يجب تناول الأنواع المختلفة للإنكار تناولًا مختلفًا، وأن يكون الإرشاد بشكلٍ مختلف، وحسب وضع المنكر ونوعه، لذا فبقدر الاختلاف الموجود في الإنكار يجب أن يكون هناك أصولٌ مختلفة للإرشاد والتنبيه والإصلاح؛ وبذلك نحول دون صدور سلوك خاطئ أو بيان غير لائق، ولكي يعطي الإرشاد والتنبيه ثمرته يجب أولًا معرفة إلى أيّ صنفٍ من الأصناف المذكورة سابقًا ينتسب إليه المنكِر، فإذا طُرِقَ هذا الموضوع بحذاقة طبيبٍ يتّضِحُ -نوعًا ما- ما يجبُ قولُه للمنكِر وكيفيّةُ إرشاده، ومع ذلك نودّ أن نذكر ما نراه ضروريًّا هنا على النحو التالي:

١- معرفة نوع إنكار المخاطَب وعمّا إذا كان هذا الإنكار كلّيًا أم جزئيًّا، وما إنْ كانَ هذا المخاطب يتّسم باللامبالاة أو التعصّب الأعمى؛ حتّى يتمّ إعطاء الأهمية اللازمة للمسألة التي يجب التركيز عليها، ولكي لا نصرف وقتَنا وجهدَنا هباءً.

٢- من المهم معرفة المستوى الثقافي والأفق الاجتماعي لمَن تخاطبه لكي تستطيع التحدّث معه بالمستوى الذي يستطيع فهمه، فالواصل إلى مستوًى ثقافي معين لا يستسيغ سماعَ شيءٍ ممّن هو أقل ثقافةً منه، بل يبدي ردّ فعلٍ سلبي تجاهَه، ويصعب في أيامنا الحالية التي شاعَ فيها العجبُ بالنفس والأنانيةُ -ولا سيما عند من قرأ وحصّل بعض المعلومات- أن تقنعه أو تُفهمه شيئًا ما، ولكي يتمَّ الوصول إلى نتيجةٍ

مُرضية مع أمثال هؤلاء يجب أن يقوم بمخاطبته مَن هو في مستواه وألا يوجّه الكلام إليه بشكلٍ مباشرٍ.

ومن المهم أيضًا استعمال لغة يفهمها المخاطب، فالتشوّهات التي أصابت الفكر في عصرنا وانعكاساتُها على لغتنا أدّت إلى تخريب هذه اللغة؛ حتى إننا لا نستطيع اليوم القول إن الأجيال التي تعيش داخل حدود الوطن الواحد تستعمل اللغة نفسها، والحقيقة أن محطات الراديو والتلفزيون وكذلك الصحف تستطيع تقديم خدمات إيجابية في توحيد هذه اللغة. ولكن الجماعات المختلفة التي انساقت وراء أيديولوجيات مختلفة تستعمل أساليب متباينة أو أشكالًا متمايزة من اللغة في مجلّاتها وكتبها وصحفها، فلم يستطع الجيل المسكين أن يتخلّص من عزلته، فالمصطلحات المختلفة والطرق المتمايزة المستعملة في اللغة شكّلت هُوّات سحيقةً بين الأجيال.

فمن الواجبِ معرفةُ وتحديدُ اللغةِ والأسلوبِ المناسِبَين لمخاطبة هؤلاء بهما، وإلّا كان الحوار مع هؤلاء شبيهًا بحوارٍ يجري في عجبٍ وحيرةٍ بين غريبين لا يعرفان بعضَهما، أي يجبُ الاهتمام باستعمال الكلمات والمصطلحات التي توضِّحُ الغايةَ والفكرَ أفضلَ إيضاحٍ.

٣- علينا أن نتضلّعَ من العِلمِ بشكلٍ جيّدٍ حيالَ ما نريد تبليغَه وإفهامَه، وأن نُجهّز أجوبةً مُقْنِعَةً للأسئلة المتوقّعة، وإلّا فإنّ خطأً صغيرًا أو هفوةً يسيرةً ستقلب كلّ شيء رأسًا على عقب، أما إن كنّا جاهلين فظاظًا فإن هذا سينعكس على الحقائق السامية التي نريد الدفاع عنها ويهون شأنها لدى مخاطبنا وتفقد قيمتها فتتشكل نظرةٌ محتلفة لدى المخاطبين تجعلهم ينأون بأنفسهم عن الدخول معنا في أيّ حوار جادّ.

ومن يتسبَّبُ في مثلِ ذلك يرتكبُ خطأً فادحًا مهما كان حسنَ النية، فكم من شابٍ انغمرَ في وَهْدَة الإلحاد نتيجةَ جهل المرشدين ونقصِ معلوماتهم، وقديمًا قيلَ في المثل الشعبي "الطبيب الجاهل يذهب بالروح والإمام الجاهل يذهب بالدين"، والحقيقة أن المرشد الجاهل أكثر ضررًا من الطبيب الجاهل، لأن جهل الطبيب وضرره محصور بالحياة القصيرة الأمدِ في الدنيا، بينما يمتدّ جهلُ المرشِدِ ليصلَ إلى تخريب الحياة الأبدية الخالدة.

٤- يجب الابتعاد عن أسلوب الجدل ومحاولة الإفحام والإلزام، فهذا الأسلوب إضافة إلى أنه يثير مشاعر الأنانية لدى الفرد فإنه لا يفضِي إلى أي نتيجة إيجابية، فإثارة نور الإيمان في القلب متعلِّقٌ بدرجة ارتباطِ هذا المرشد بخالقِ الإيمان وهو الله تعالى، فإن المناقشات الحامية والمناظرات التي تتمّ حسب أسلوب أهل الغفلة إذا لم تَتَغَيَّ رضا الله -وإن أدّتْ إلى التفوّق في الإفحام والإلزام- فلنْ يكون لها أي تأثير إيجابي، ولا سيما إن كان معروفًا مسبقًا حدوث مثل هذا النقاش والجدال وتم التهيؤ له بأعصابٍ متوتّرة ومنفعلة. فأمثال هؤلاء لا يحضرون كمناظرين، بل كخصوم ويجلسون كحاقدين ويتركون النقاشَ والغضبُ يملأ قلوبهم، وقد وطّنوا أنفسهم على البحث عن أجوبةٍ حول المسائل التي تُقَدَّمُ إليهم، ومعلوم ما يحدث بعد هذا... سيقومون بمراجعة أصدقائهم وبتقليب الكتب وطَرْق كلّ باب وسبيلٍ لتهيئة الأجوبة للمسائل والأمور التي حاولنا أن نُفهمها له، وهكذا يكون قد خطا خطوةً أخرى تزيد من إنكاره، أي إنّ المرشد في هذه الحالة يحصل على نتيجةٍ معاكسةٍ تمامًا لما أراده.

٥- يجب مخاطبةُ قلبِ المخاطَبِ وضميرِهِ عند التحدُّثِ إليه، كل جملةٍ يجبُ أن تبدأ وتنتهي بالصدق والحبّ، وألّا تحتوي على أيّ تعريضٍ

بشخصية المخاطب أو تجريحٍ بأفكاره، وإلّا فقدَ حديثُنا معه تأثيرَه، بل ربما جعله خصمًا لنا، على المرشد أن يتصرَّفَ كطبيبٍ رؤوفٍ مُصِرٍّ على معالجة مريضِه، فيحنو عليه، ويُنصِت إليه ويحسُّ بآلامه المعنوية في قلبه كَحَوَارِيٍّ صادقٍ، وكرجلٍ باحثٍ عن الحقِّ والحقيقة، فإنْ تناغم الصوت والحديث في مثل هذا الجوّ انسابت المعاني إلى قلبِ المخاطب كماء زمزم لتفتحه وتطهره، وهنا نستطيع التأكّد بأننا وصلنا إلى قلبه، علينا أن ننتبه -ونحنُ نُحاولُ الإرشادَ- إلى تعابير وجه مَن نخاطبه، فنعدّل من أنفسنا ونقوّمها على الدوام ولا نكرّر شيئًا آلمه أو أقلقه أو أزعجه.

هنا يجب ألا تغيب عن بالنا نقطةٌ مهمةٌ هي أنه عندما يفارقنا مخاطبنا هذا، عليه أن يفارقنا وهو محمّل بانطباعاتٍ جيدة عنا... عن صدق تصرفاتنا، عن إشراق أبصارنا، عن الإخلاص الذي عبّر عنه كلُّ عضوٍ من أعضائنا، فإن أبدى رغبتَه في اللقاء بنا مرّةً ثانية تأكدنا أننا نجحنا في إيصال معظم ما أردنا إيصالَهُ إليه.

٦- يجب ألا ننتقد الأفكار الخاطئة لمخاطبنا أو بياناته غير الصائبة بشكلٍ يجرح غرورَه، وألا نهوّن من شأنه أمام الآخرين أبدًا، فإن كان هدفُنا الوصولَ إلى قلبه، وإهداءَ شيءٍ إلى هذا القلب فعلينا أن نضحّيَ -بكلّ رحابة صدر- بغرورِ أنفسنا، بل حتى بما يجرح كرامتنا، هذا عِلمًا بأننا لا نستطيع جعلَه يتقبّل أيَّ شيءٍ منّا إن جرحنا كرامته أو آذينا إحساسه، فكلّ تَصَرُّفٍ من هذا القبيل يبعده عنّا أكثر فأكثر.

٧- أحيانًا يكون تعريف مثل هذا المنكِر بالأصدقاء الذين سلمت عقيدتهم واستقامت تصرفاتهم واستنارت قلوبهم أفضل من ألف نصيحة وأكثر تأثيرًا، ولكن مثل هذا السبيل قد لا يصلح لكلّ منكِر، لذا يجب على المرشد أن يعرف نفسية تلميذه ويتصرف على ضوء هذه المعرفة.

٨- وعلى النقيض فمن الواجبِ الحيلولةُ دون تعرّفه بأشخاص غير جدّيين في سلوكهم وغير صائبين في أفكارهم، ومعلومٌ أن التعرّف بالذين ضَعُف توجُّههم إلى خالقهم سبحانه وتعالى لا يجرّ أيَّ نفعٍ مطلقًا، لا سيما أولئك الذين يدّعون التديّن ولكنهم محرومون من عشق العبادة، الذين تعكرت أفكارهم ومشاعرهم؛ فيجب الحذر تمامًا من تعريفه بأمثال هؤلاء.

٩- علينا أن نتركَ له فرصةَ الكلام بين الحين والآخر لِيُفْصِحَ عما يختلجُه من مشاعر، فهو إنسانٌ ويجب احترامُه ومنحُه فرصَةَ التعبير عن أفكاره، إنّ عمق العقيدة إن كانتْ متوجهةً إلى داخل الفرد كانت عاملَ نضجٍ وفضيلة، وإن كانت متوجهةً نحو الخارج، وخاصة نحو مَن لا يعرف شيئًا كانت عاملَ تنفيرٍ وإضاعة فرصة التفاهم معه.

صحيح أنّ الاستماع للأفكار الباطلة يَجْرَحُ الروحَ ويعكِّرُ صفوَ الفِكْرِ، ولكن التحلي بالصبر في هذا الخصوص، وتَجَرُّعَ هذا الألمِ في سبيل اكتسابِ قلبٍ جديدٍ واجبٌ علينا؛ وإلّا فإننا إن لم نُعْطِ له حقَّ وفرصة إبداء الرأي وتوضيحِ الفِكر، واحتكرنا الحديث، وملأنا المجلسَ بكلامنا فقط... فقد لا يدخل شيءٌ من هذا الكلام إلى عقلِه، فكم من مرشدٍ اشتُهر بهذا الأمر وأصبح مكروهًا بسببه، ومثل هؤلاء يشبهون من يحاول نقل الماء بغربالٍ؛ فهو على رغم بذله الجهود الجبّارة لا يستطيع الوصول إلى أيّ نتيجة إيجابية، لذا فويلٌ للمبتلين بحبّ الكلام، ولا يبدون ظرافةً في السلوك وأدبًا في الاستماع إلى الآخرين.

١٠- من المفيد أن يذكر المرشدُ في أثناء كلامه أنّ الأفكار التي يقدّمها ليست خاصّةً به وأن كثيرًا من المفكّرين العظماء السابقين والحاليّين

يشاركونه فيها، وأنّ كثيرًا من المفكرين الموجودين حاليًّا باستثناء فئةٍ قليلة جدًّا هم من أصحاب العقيدة السليمة، ويذكر أسماءهم ويضرب بهم المثل لكي لا يبقى كلامه كلامًا مجرّدًا.

١١- لا شك أن أوّل ما يجب علينا تبليغه وإفهامه وشرحه هو شرح ركني كلمة الشهادة، فإن ظهر أنها من معتقداته وأنها بعضُ موروثاته السابقة، أو أنه اعتقدها وآمن بها بعد حديثنا معه؛ عند ذلك يمكن الانتقال إلى مواضيع أخرى، ويجبُ الحذر هنا والابتعاد عن إثارة المسائل التي يتجرّأُ المنكِر على نقدها، وذلك قبل التأكُّد والاطمئنان إلى استقرار الإيمان في قلبه.

نستطيع أن نلخّص الموضوع ونقول: إنه بعد تعيين وضع المنكِر فإنّ أُسس الإيمان هي أوّل ما يجب ذكرها وطرحها له، وذلك ضمن الإطار الذي تمّ ذكره، وبعد الاطمئنان إلى استقرار الإيمان في قلبه، بعدَ ذلك يمكن التطرّق إلى مواضيع ومسائل أخرى، وإلّا فإن تقديمَ المسائل بترتيبٍ خاطِئٍ يُشبه تقديم الحلوى أوّلًا في الوليمة، أو يشبه تقديمَ اللحم إلى الحصان والعشبَ إلى الكلبِ، ومثل هذا الترتيب الخاطئ في التقديم -وإن أُعْجِبْنا به- لا يأتي بأي نتيجة بل يمنح المخاطبَ انطباعًا سلبيًّا.

ونحن نهدي هذه المقالة إلى ممثلي التربية والتعليم الأعزاء الذين يتكبّدون حاليًّا أعباء ومهمّة إنقاذ هذا الجيل المسكين الظامئِ إلى العقيدة والشعور الوطني، والذي يدنو من الموت عبرَ كلّ حركة له في دُوّامة الإلحاد.

تنوّعُ المشارب في الإسلام

سؤال: هل توجد مشارب ومدارس مختلفة في الإسلام؟ وهل حدث مثل هذا الخلاف بين الصحابة الكرام؟ وما الفكر الذي يوحّد بينها؟

الجواب: المشرب كلمة تأتي من جذر "الشُّرب"، أما المعنى الدارج لدى العامة فهو يُطلَقُ على أحَدِ فروع الحقيقة الواحدةِ جرّاءَ اختلاف الناس في فهم فروعها، لذا يمكننا اعتبار اختلاف الآراء والأفكار في الدعوة إلى الإسلام والإيمان والقرآن على أنها مشاربُ مختلفة للحقيقة الواحدة، فالهدفُ موحّدٌ ومشتركٌ للجميع ولكن الطرق الموصلة إليه مختلفة.

لذا يجب تأييد ومساعدة كلّ مَن يخدم الدين والإيمان ويعمل على إعلاء شأن الإسلام سواء أكان في المشرق أم في المغرب، وأيًّا كان مشربه، صحيحٌ أن الطرق والمسالك قد لا تكون نفسُها، ولكن المهمَّ هو توحيد الهدف والغاية.

هناك أسبابٌ عديدة تؤثّر في اختلاف هذه الطرق، فالبيئة التي ينشأ فيها الإنسان، والثقافة التي يحصّلها لها تأثيرٌ كبيرٌ فيه، كما أن لكيفية تجلي أسماء الله الحسنى تأثيرًا فيه أيضًا، لذا فظهورُ مشارب مختلفة أمرٌ طبيعي، وقد ظهرت في السابق ولا تزال تظهر.

لـم يكن مشـرب الكرّار علـيّ كرم الله وجهـه كمشـرب الصدّيقِ أبي بكر ﷺ، ولم يكن مشـرب الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ كمشـرب أبي ذر الغفـاري ﷺ، بـل كان هناك اختلافٌ كبير بينهما، مـع أنهما يتمتّعان بنفس الشـهامة والشـجاعة ومـع أنهما تلاميذ المدرسـة النبويّة نفسها، فعُمر ﷺ كان رجلَ دولة ورجلَ إدارةٍ وتنظيمٍ من الطراز الأول، بينما كان أبو ذر ﷺ ذا مشرَبٍ انفراديّ.

ويُفهـم مـن هـذا أنـه حتى فـي عهـد رسـول الله ﷺ الذي اجتـاز كلّ الأذواق والمشـارب، ووحّد الأديان وألّف بين المسـالك لـم تَنْمحِ تمامًا الأذواق والمشارب المختلفة، ولم يحاول أحدٌ القيام بمثل هذه المحاولة، والحقيقـة أن محاولة توحيد المشـارب تصطَدِم والفطرةَ الإنسـانية؛ ذلك لأن الذيـن خُلقـوا بطبائـع مختلفة لا يمكـن أن يفكروا بطريقـةٍ موحّدة، وطبعًا هناك احتمالٌ قويٌّ لظهور مصاعب وتعقيدات ومشاكل عديدة عند محاولة فرض التوحيد بين المشارب بالقوة.

ويمكـن أن نقـول: إن الذين يرومون توحيـد المذاهب لم يفقهوا هذه الناحية الدقيقة في الفطرة الإنسانية، ولم يُدركوا الطبيعة الإنسانية، وتناسَوا الاسـتعدادات البشـرية الفطريّة، فإن بدأت القابليات المختلفة التي خلقها الله بالعمل والظهور وفقًا لمقتضى الحكم الإلهية -موفّيةً مهامَها بحقٍّ- فلا بدّ من ظهور مذاهب ومشارِبَ مختلفة.

لـذا فقـد كان لا بدّ لهـذه القابليـات المختلفـة أن تُجَسِّـدَ الفقه على شـكل مذاهب أبي حنيفة والشـافعي ومالك وأحمـد والأوزاعي والثوري والزهـري... إلـخ من المذاهـب، وكان لا بدّ لها من الظهـور في الطرق الصوفية التي تخاطبُ قلبَ الإنسـان ومشـاعره ووجدانه، وتسـعى لخدمة

الشريعة الغرّاء وخدمة الدين الإسلامي المبين، اعتبارًا من عهد النبوة إلى يومنا هذا مستهدفةً توسعة الروح والقلب.

كان سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم رحِمهما الله من أوائل الصوفية، ثم جاء أبو يزيد البِسطامي فجنَيد البغدادي، ثم الغوث الأعظم عبد القادر الكيلاني ذلك العملاق الذي أحبّه أهلُ الحقّ كافة، ثم الشيخ شاه النَّقشَبند؛ كلُّ واحد من هؤلاء كان يمثّل مَشْربًا مختلفًا ومزاجًا مختلفًا، ولكنهم كانوا جميعًا كأضواء ودَرجات مختلفة من اللون نفسه، وحاولوا جميعًا إحياء الحقيقة التي جاء بها الرسول ﷺ.

إن وضعتُم طريقة محيي الدين بن عربي بجانب طريقة الإمام أحمد الفاروق السرهندي الملقَّب بـ"الإمام الرباني" لَرأيتم فَرقًا واضحًا بينهما؛ فالوَليّ الكبير الإمام الرباني يُعَدُّ ممثّلًا لمَسلك الصحابة وطريقهم وهو قطب مذهب "الفرق"[٢١]، وهو باتفاق الجميع مِن أفضل مَن فهم الحقيقة الأحمدية، وأفضلِ مَن كتب عن الظاهر والباطن للشريعة الأحمدية وأفضل شارحٍ للوحدة والتناسب الموجود بينهما، ولا نزال نحسّ في قلوبنا بنور الضياء الذي نشره قبل أربعمائة سنة.

ولقد عارضَ هذا العملاقُ محيِيَ الدين بن عربي في مواضع عديدة فكان دائمًا ما يوجه إلى المنهج النبوي الصحيح وطريق الصحابة الكرام

(٢١) الفَرقُ: مَا نُسب إليك والجَمعُ: مَا سُلب عَنْك، ومعناه أَنَّ مَا يَكُون كسبًا للعبد من إقامة العبودية وَمَا يليق بأحوال البشرية فَهُوَ فرقٌ، وَمَا يَكُون من قِبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فَهُوَ جمع، وهَذَا أدنى أحوالهم فِي الجمع والفرق، لأنه من شهود الأفعال فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفته فَهُوَ عَبْدٌ بوصف "التفرقة"، ومن أشهده الحق سبحانه مَا يوليه من أفعال نَفْسه سبحانه فَهُوَ عَبْدٌ يشاهد "الجمع"، فإثبات الخلق من بَاب التفرقة وإثبات الحق من نعت الجمع، ولا بدّ للعبد من الجمع والفرق، فَإن من لا تفرقة لَهُ لا عبودية لَهُ، ومن لا جمع لَهُ لا معرفة لَهُ، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إِلَى الفرق، وقوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إِلَى الجمع، انظر: القشيري: **الرسالة القشيرية**، ص ١٦٦. (المترجم)

قائلًا: ليست "الفتوحات المكيّة"، بل "الفتوحات المدنيّة"، وهو طريق أهل السنة والجماعة التي تمثّل بدورها الحقيقة الأحمدية، والحقيقة أن هذه المسألة مسألةُ مشرَبٍ وذوق، صحيح أن ابن عربي قال بـ"وحدة الوجود" إلّا أنه بدلًا من معنى "لا وجود لأيّ موجودٍ سوى الله" كان يعني "لا وجودَ حقيقيّ وقائم بذاته سوى الله"، أي كان يُومِئ بشكلٍ ما إلى "وحدةِ الشهود".

لقد أطنَبتُ واتخذتُ طرقًا بعيدةً ومختلطةً حتى أُبَيّنَ استحالة اتّحاد المشارب والأذواق، لِنَعُدْ إلى صُلْبِ السؤال والموضوع فنقول:

إنّ المشارب والمذاهب المتعدّدة باقيةٌ ما بقي الليل والنهار ولن يستطيع أحد الحَيلولة دون هذا، ولكن من الممكن دائمًا الاتحاد في الهدف والغاية مع اختلاف الطرق والمسالك، أي يمكن أن تختلف الألسن، ولكن الحقيقة التي يتمّ شرحها بِشَتّى اللغات حقيقة واحدة، وكما قال الشاعر:

عباراتُنا شتّى وحُسْنك واحد

وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشيرُ

الكلمات مختلفة، والتعابير متنوّعةٌ، والأجواء متعدّدة، ولكن الجمال الذي تصِفه هذه الكلمات هو الجمال نفسه. أجل، فما دام رضا الله تعالى متوطّنًا في الأرواح، ومَحبة الشريعة الأحمدية -ﷺ على صاحبها- موجودة في القلوب، والروحُ تتحرّك وفقَ هذا الأساس، فإن التفاهم والاتفاق ممكنٌ -وإن وجدت الاختلافات والاحتكاكات- في كلِّ حينٍ وآنٍ، فإذا كان اليوم ثمّة أُمورٌ ضرورية لتأمين الوفاق والاتّحاد في ظلّ فهمٍ إسلاميٍّ صحيحٍ -وأنا أعتقد أنها موجودة- فيجب الوقوف عندها والاهتمام بها.

ويمكن أن يتمّ هذا الاتفاق والاتحاد وتجاوز المشارب على الصعيد العاطفي أو على الصعيد الفكري والمنطقي، بالنسبة للصعيد العاطفي قد يكفي لتحقيق هذا الائتلاف والاتفاق اجتماعُ الجماعات الإسلامية المختلفة وتكوينها اتحادًا ما وإن كان صوريًّا، ولكن لكون الإنسان لا يستقرّ على حال، وهو في تطوّرٍ فكريٍّ وروحيٍّ دائمٍ، فإن هذه الوحدة العاطفية الضعيفة -ضَعْفَ الخيطِ القطني- قد لا تكون كافية، لذا فإنه متى ما تبيّن عدم كفاية هذه الرابطة الضعيفة، فعلى الجماعات الاجتماع حول مائدةٍ واحدةٍ ومحاولة تأسيس وحدةٍ فكريّةٍ ومنطقية. أجل، لكي ننقذ الحق من براثن الباطل، ولكي نتخلّص من الذل أمام الظالمين، ولكي نجعل من الأمة المحمدية مثالَ الأمن والطمأنينة لكلّ الأمم، ونمكّن لها نشر حقائق القرآن المعجز البيان في العالم كله يجبُ الاتفاق على الصعيد الفكري والمنطقي.

فإن أردنا إيضاحَ المسألة بأمثلةٍ ملموسة نقول: إنه كان قبل عِقدَين أو ثلاثة من الزمن اتفاقٌ واتحادٌ عاطفي بين جماهيرنا، وكان هذا الاتفاق والاتحاد ردّ فعلٍ للتيار الإلحادي والشيوعي، أي كان في الجانب المقابل زمرةٌ تُنِكر -حاشا لله- اللهَ تعالى ورسوله ﷺ والقرآن الكريم، وتجمَّعَ في الجانب المقابل كلّ معارضي الشيوعية، ويشبه هذا اتفاقُ الدول الحرّة ضدّ الشيوعية، فتجمّع في الجانب المعارض للشيوعية المؤمنون الذين يحاولون نشرَ أسس الإيمان، الذين يتبنّون فلسفة الإحياء والانبعاث من جديد، وكذلك القوميون الذين اتخذوا الفكرة القومية أساسًا لهم، أما في الساحة السياسية فقد تجمّع ألوان وأصناف عديدة من معارضي الشيوعية واتحدوا واتفقوا ضدها، لذا كنّا نرى في الجانب المعارض للشيوعية مَن يقرأ المجلات الإسلامية ويتابع المجلات القومية، كان بعضهم يتحدث

بحماسٍ وبلسانِ العاطفة بينما كان البعض الآخر يتحدث بلغة العقل والمنطق، في مثل هذا الجو العاطفي كان الكثيرون يقولون: "مهما حدث يجب أن نُحافظ على وحْدتنا ضدّ الملحدين والمنكرين".

فقد كان الاتفاق آنذاك مؤسّسًا على العاطفة تمامًا، ولقد جاء الوقتُ الذي لم يعُدْ فيه هذا المفهوم للأخوّة كافيًا، فلقد تقدّمَ المسلمون على الصعيد الفكري والعاطفي، لقد فكّروا وبحثوا وقرؤوا فتقدموا، وأدركوا أيَّ الأفكار المضادة للإسلام، أو ظنّ معظمهم أنهم أدركوا؛ فقد كان يجمعهم الفكر والعمل والدفاع المشترك، فظلوا لفترةٍ طويلة معًا تحت السقف نفسه يُحافِظون على هذه القواسم المشتركة، وكما اجتمع الملحدون والمنكرون لله ولرسوله تحت سقفٍ واحد كذلك فقد اجتمع المسلمون تحت سقفٍ واحدٍ آخر، ومَن يدري فلربما توفرت لهم آنذاك فرصةٌ كافيةٌ للتمييز بين الأسود والأبيض وبين الغثّ والسمين. أجل، لقد شاهدوا كلّ شيء وأدركوه جيدًا، وبينما كانت قلوبهم وعقولهم تسترجِعُ عهد الحضارةِ في المدينة المنورّة على عهد النبيّ ﷺ كي تَسود الحقائق الإلهية التي جاء بها كانت عقول بعضهم الآخر وقلوبهم بعيدةً جدًّا عنهم وفي وادٍ آخر، وهكذا بدأت روابط هذا الاتفاق بالتقطّع، إذ تبين أن المشاعر والعواطف مختلفةٌ ومتباينة.

بعد هذه الفترة ظهر أن الروابط العاطفية ليستْ كافيةً، لذا اتجه كلّ فريقٍ إلى جهة معينة وتفرقت بهم السبل، فالاتحاد والائتلاف كان بحاجةٍ -إلى جانب الرابطة العاطفية- إلى أسسٍ فكريّةٍ ومنطقيّةٍ.

أما من جهتنا فإننا نشاهد الصحوة الإسلامية في تركيا وفي البلدان الإسلامية الأخرى، وإننا نرى من المفيد أن نذكّر بضرورة عدم تناسي

الأسس التي يجب مراعاتها حتى وإن كانت لدينا قناعةٌ بأن كلّ إنسانٍ يقوم بما عليه ويهيّئُ ما يمكن تهيئته لمستقبل الأمة.

أولًا: يجب على كلّ سالكٍ في طريق الحقّ أن يتخلّى عن محاولة قسرِ الآخرين على التفكير مثله؛ فكلّ خدمةٍ في طريق الحق نُصفّقُ لها ونُثْني عليها، فكما يتقبّل أرباب المهن المختلفة وأصحاب الفنون المتنوّعة بعضُهم البعضَ الآخر ويتداولون ويتبادلون ثمار سعيهم ويتعاونون في سبيل هدفٍ مشترك، كذلك على أصحاب المشارب والأذواق المختلفة إبداء الفهمِ نفسِهِ والمرونة نفسها، والابتعاد عن التصلّب في فرض طرقٍ معينة ما دام الهدف المنشود مشتركًا، لذا فما يجب عمله هو القيام بالثناء على كلّ مَنْ يقدّم خدمةً في ساحته، وقبول كل مَنْ يقول: "إن كل من يذكر الله تعالى ويسعى من أجله ويبجّل رسولنا ﷺ فهو أخي..."، ولكي لا تزدرئنا الرأسمالية أو الشيوعية، ولكي لا نقع في بئر الإلحاد علينا أن نضع اتفاقًا ما ولو كان صوريًّا، فالإنجليزيّ حقق وحدة "الأنجلوسكسون والغال" لكي يؤمّن مستقبله، مع أن هذين العنصرين -"الأنجلوسكسون والغال"- يكره أحدهما الآخر وينفر منه نفورًا كبيرًا، ومع ذلك فلم يظهر بينهما أمام العيان أيّ خلاف أو نزاع حتى اليوم؛ لأنهما جلسا على طاولةٍ واحدة وتفاوضا واستعرضا القواسم المشتركة ونقاط الخلاف، وأخذا بنظر الاعتبار مستقبلَ إنكلترا ومصيرها، فتنازلَ كلٌّ منهما عن بعض الأمور في هذا السبيل.

ما يعنينا من هذا في دعوتنا هو أننا جميعًا باختلاف مشاربنا وأذواقنا نؤْمن بربٍّ واحد، ونؤمن بأنّ رسولَنا واحد، وكتابَنا واحد، وقبلتَنا واحدة، وطريقَنا واحد، إذن نستطيع أن نقيمَ وحدَتَنا على هذه الأسس المنطقية

السليمة، وليس على أساسٍ عاطفي مجرّد، فهذه الأسس القوية المشتركة فيما بيننا تقتضي وتوجب علينا الوحدة فيما بيننا، أما الزعم بخلاف هذا فليس إلّا همسات النفس الأمّارة ومعاذيرها.

لقد عقدنا العزم جميعًا على إيصال كنزٍ نفيس إلى مكانٍ معيّن، فإن كان علينا أن يُبارزَ بعضُنا البعضَ الآخر، فلنتبارز تلك المبارزةَ الملعونة بعد قيامنا بإيصال ذلك الكنز وتلك الأمانة إلى أصحابها، ولكن علينا أوّلًا أن نفكّر في حاضر هذه الأمة الكريمة ومستقبلها فلا ندعهما نهبًا للملحدين والفسقة.

ثانيًا: الطريقة الثانية في هذا الموضوع هي ألا يقوم أحدٌ بإكراه الآخرين على سلوك طريقه والدخول في نظامه، بل لندع كلَّ واحد يعمل بالطريقة التي يفضّلها ويراها أصلح من غيرها؛ لأنه من المعروف أنّ مِنَ الصعب على الكثيرين تغيير أفكارهم، بل يستحيل ذلك في كثيرٍ من الأحيان، فالإجبار ليس طريقًا سليمًا ومجديًا، بل يؤدّي إلى مشاكل وانشقاقات لا يمكن التئامها، بينما التسامح واللين والتفاهم بالحسنى هو الطريق الذي أوصانا به القرآن، والذين يتعاملون بالحسنى والتسامح يحلّون مشاكل مستقبلية مهمة.

وهناك شيءٌ آخر يجب الوقوف عنده وهو: بما أن المشارب والأذواق المختلفة لا تتّحد، لكن كلّ مَن يعمل في سبيل الإيمان والقرآن يؤدّي في الحقيقة خدمةً مهمّة؛ فمثلًا هناك كثيرٌ من الأقلام اللامعة التي تقوم بتناول حياتنا الاجتماعية ومشاكلها بالتدقيق وبالبحث عن حلولٍ لها، والإسلام بحاجة إلى مثل هذه الحلول أيضًا، لذا فلندَع هؤلاء يقومون بحلّ المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، ولنقم نحن بما نستطيع القيام به،

فكما تمّت حمْلة تَكيّف وتوفيق في العصر العباسي، كذلك يجب أن تتم مثل هذه الحملة اليوم، ولتكن مقاييس وموازين أهل السنة والجماعة هي الحكم فيما نأخذ وفيما ندَع، ولنحاول إنشاء عالم جديد أو على الأقل تهيئة الأسس للوصول إلى هذا العالم الجديد من خلال توليفات جديدة.

لنفرض أن هناك مجموعةً أخرى لها جوانب يمكن انتقادها من منظور أهل السنة والجماعة، ولكن بالنسبة لموضوع الدراسة والبحث فإنّ لها -بل حتى للغرب- جوانب إيجابية يمكن الاستفادة منها؛ فما الضرر في الأخذ عنهم بعد الأخذ بنظر الاعتبار كرامتنا وعزتنا وكذلك عداوتهم لنا وإجراء حساباتنا على هذا الأساس؟ والحقيقة أن كلّ مذهبٍ باطل يحتوي على جزء صغير من الحق، وهو مَدِين في وجوده وبقائه لهذا الجزء الحق؛ لذا يمكن أخذ ذلك الجزء الصغير من الحق والحقيقة، بل هذا أمرٌ لا بدّ منه.

لِأَشْرَحْ هذه المسألةَ بمثال: هناك مذهبان خارج دائرة أهل السنة والجماعة يمثلان منذ القديم قطبين متضادين وهما "المعتزلة" و"الجبرية"، فمذهب المعتزلة يقول: "إن العبد خالقٌ لأفعاله"، أما المذهب الجبري فيقول: "الله خالق كل شيء، والإنسان مسيَّر مثل الآلة"، فلهذين المذهبين وجهتا نظر متناقضتان تمامًا حول إرادة الإنسان وحول خلق الله تعالى للأفعال، فالمعتزلة تقول: إن الإنسان يخلق أفعاله، ولا يتدخّل اللهُ تعالى في هذا الأمر، وأصحاب الفلسفة العقلية "راسيوناليزم" في أيامنا الحالية يفكرون أيضًا التفكير نفسه، أما الجبرية فترى العكس تمامًا ولا تعطي للإنسان أيّ حرية أو اختيار أو إرادة، بل تراه مكتوف اليدَين والرجلَين وهو على مثال قول الشاعر النابلسي:

ألقاه في اليمّ مكتوفًا وقال له

إيـاكَ إيـاكَ أن تبتـلّ بالمـاءِ

أما أهل السنة فقد أخذوا جزءَ الحقيقة من هذا المذهب وجزءَ الحقيقة من المذهب الآخر ومزَجوهما معًا ليُخرجوا تركيبًا آخر؛ فقالوا للمعتزلة: "أجـل، هنـاك إرادة للإنسـان، لأن آيات عديدة في القـرآن تدلّ على هذا، فالإنسـان يعمل عملًا صالحًا بإرادته ويسـتحق الجنة على ذلك، فالإرادةُ موجودة لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَـانِ إِلَّا مَا سَـعَى﴾ (سـورة النَّجْم: ٣٩/٥٣)، ولكن دون أن ننسـى أنّ مشـيئة الله أساس في هذا الموضوع حسَب قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة التَّكْوِيرِ: ٢٩/٨١)".

إن مسـاحة الإرادة التي تذكرونهـا ضيّقة إلى درجة قد يكون وجودها أو عـدم وجودهـا سـواء، ولكـن الإرادة -كشـرط عادي- موجـودة وهي الأساس في البرّ والإثم والثواب والعقاب.

مـا أريـد قوله من هذا الشـرح، أن هناك جزءًا مـن الحقيقة في النظام الرأسماليّ، وكذلك جزءًا من الحقيقة في النظام الشيوعيّ، هذا الجزء هو الذي تقوم الشيوعية باستغلاله، إذ تقوم باستغلال الملكية العامة واستغلال الفقيـر زاعمـة الدفاع عن الفقراء، أي إنها تنافـق في هذا الموضوع، وهذه الأنظمة هي التي تقود الجماهير الآن، أما الإسلام فجميـع أنظمته وجميـع مبادئـه حقّ وحقيقة وعدالة مَحْضـة، فهو مجموعة من المبادئ التي تؤمّن الوحدة والاتفاق.

أمـا المشـارب فإننا نقول بأن كل مشـرب يحوي جانبًا مـن الحقيقة؛ لذا فمِن الخطإ تَنَاسِـي أن الله تعالى خلق الناس بمشـارب مختلفة وأذواق

مختلفـة، ومـن الخطإ محاولـة التصدي والعمل ضدّ الفطـرة التي فطر الله النـاس عليهـا، ومحاولة جمـع جميـع الميـاه المتدفّقة من جداول مختلفة في مسارٍ واحد، فهذه محاولة خيالية علينا ألا نقوم بها، بل على كل واحد منـا محاولة نشـر الأنـوار القرآنية والإيمانية، كلٌّ في سـاحته، ولا يصرف جهده في النزاع مـع الآخرين، فإنْ لم يستطـع الاتفاق مـع الآخرين فلا يُثِرِ النزاعَـات والخصومات على الأقلّ، وليحذر انتقادهم واغتيابهم، وليتعلّمْ كيف يثني على كلّ عمل خيرٍ، وكيفَ يكون ظهيرًا لكلّ مَن يذكر الله، فإن فعلنا هذا فإننا نأمل بعون الله تعالى تأسيس تعاونٍ واتحادٍ واتفاقٍ فيما بين المسلمين بعد مدة وجيزة.